تأملات قرآنية

من أسرار ترتيب ذوات (الر) الست

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

نضائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

تأملات قرآنية

من أسرار ترتيب ذوات ﴿الر﴾ الستِّ

أ.د/ عبد السلام المجيدي

ترتيب عجيب في ذوات ﴿الر﴾.. يا للجمال والجلال..

هي ست سُوَر جاءت متتابعة في القرآن الكريم، فلنمعن النظر في جانبٍ واحدٍ يتعلَّق بوصف القرآن فيها قد يُظهرلنا شيئًا من الحكمة في ترتيبها:

١) سورة يونس عليه السلام: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: ١] وصف الكتاب المجيد أولًا: بالحكمة.

٢) سورة هود عليه السلام: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١]، وصفه هنا ثانيًا: بالإحكام (بعد الحكمة فيما سبق)، ثم بالتفصيل من لدن حكيم خبير.

فهذه ثلاث صفات أتت على نسق الترتيب المنطقي:

حكمة، إحكام، تفصيل يبين حقيقة الحكمة والإحكام.

٣) سورة يوسف عليه السلام: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١-٢]، وصفه ثالثًا: بالإبانة، ليبين أن كتاب الحكمة المحكم المفصَّل كتاب مبين (اسم فاعل) حتى كأنه من شدة إبانته يتكلم بنفسه، ولا يحتاج لمن يبين عنه (وهذا وجه من خمسة أوجه في معنى مبين)، ولكن ذلك ينفع العقلاء لا السفهاء والجهلاء (الجهل هنا ضد الحلم وليس العلم).

٤) سورة الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ [الرعد: ١]، فاكتفى هنا بذكر أنه هو الكتاب ليخطر في بالك أولًا الصفات السابقة، ثم لتعلم أنه لا كتاب يستحق التعريف في الوجود إلا هو، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الرعد: ١] ليبين أمرين:

- **نتيجة وصفه بالصفات الأربع**: الحكمة، والإحكام، والتفصيل، والإبانة، والنتيجة أنه الحق.
- **ليصف واقع العالم إزاء هذه النتيجة**: أكثرهم لا يؤمنون، فالمؤمنون من العاقلين المشار إليهم في السورة السابقة قليل.

٥) سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: ١]، وهنا بعد أن عرَّف الكتاب، وبيَّنَ أهمَّ أوصافه الرائعة العظيمة بَيَّنَ هدف إنزاله: ليكون كتاب النور والتنوير ويهدم ممالك الظلام، وبيئات الوحل والآثام، ويهدي الناس سبل السلام.

٦) سورة الحجر: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١] جعل الإبانة هنا وصفًا للمقروء المتلو بعد أن كان وصفًا للمكتوب لتكتمل الإبانة ويتم التوثيق والعمل الواقعي به، فليس هو مكتوبًا ليوضع على الأرفف بل لتلهج به ألسن العلماء والحكماء والأذكياء والرجال والنساء؛ ليكون منار السياسيين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع والإدارة والتربية، تردد ألسنتهم قواعده، وتعمل أنظمتهم وَفْقَهُ.

وتنتهي ذوات ﴿الٓر﴾ بالختام الذي يبين قيمة القرآن ومكانته لو كان في العالم من يسمع: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨]، كأنه سبحانه يقول: اعرف قيمة القرآن فَهُمْ لا يعرفونه -والخطاب للنبي ﷺ ولأمته من بعده-، ثم من عرفه ولم يؤمن به أو من آمن به ولم يعمل به فلا تحزن عليه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ

عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨]، ومع ذلك احذر من الشدة مع المؤمنين خاصة حتى توقظهم من سبات الغفلة عن الكتاب ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ولأن الكلام في هذه التأملات هو عن بيان قيمة القرآن يلفت نظرنا شيء آخر هو: التعريف بقيمة القرآن بأساليب مختلفة في أثناء هذه السور:

أولًا: الاعتزاز به، وبيان مصدريته الإلهية التي لا يمكن معها تغييره لمجرد الرغبات الشخصية أو النزوات العقلية ففي سورة يونس عليه السلام: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ [يونس: ١٥].

ثانيًا: التحدي بسورة منه كما في سورة يونس عليه السلام: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، أو بعشر سور منه كما في سورة هود عليه السلام: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود: ١٣].

وفي سبب هذا الترتيب (التحدي بسورة في يونس ثم التحدي بعشر سور في هود) مع أن التحدي عادة يكون بالأكثر ثم عند حدوث الانهزام يكون بالأقل.. في هذا الترتيب القرآني عدة حكم فقد يقال: لأن هودًا عليه السلام أقدم من يونس عليه السلام تاريخًا، ولكن من أبرز التأملات أن الله تعالى وصف كلامه (القرآن) في سورة يونس بالحكمة بينما وصفه في سورة هود بالإحكام والتفصيل، والذي يريد البحث عن الإحكام والتفصيل لا يكتفي بسورة واحدة ليقتنع فجاء التحدي بعشر سور.

ثالثًا: ختم السُّوَر بمدح القرآن والثناء عليه في كلِّ سورة بما يليق بنتائج وصفه في بداياتها:

فبعد وصف القرآن بالحكمة في أول سورة يونس جاء ختامها على نحوين: وصف القرآن بالحق: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، والأمر باتباعه: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وبعد وصف القرآن في أول سورة هود عليه السلام بالإحكام والتفصيل جاء في ختامها: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] فأضاف في الوصف الموعظة والذكرى.

وبعد وصف القرآن بأنه الكتاب المبين في أول سورة يوسف عليه السلام جاء ختامها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، فوصف القرآن بالحقِّ من خلال نفي الافتراء، ثم وصفه بأربع صفات جديدة كنتيجة للإبانة: تصديق الكتب السابقة، وتفصيل كل شيء، وهدى، ورحمة ولكن لمن؟ لقوم يؤمنون. اللهم اجعلنا منهم.

وبعد وصف القرآن بالكتاب الذي لا يستحق كتاب في الوجود اسم الكتاب سواه في أول سورة الرعد جاء في خواتيمها بيان النتيجة، وهي فرح من عرف قيمته به، وإنكار المتحزبين المتعصبين من مناوئيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

وبعد بيان هدف إنزال القرآن في أول سورة إبراهيم عليه السلام جاءت خاتمتها تبين أن البلاغ والإنذار بالقرآن لعموم الناس، ولكن الذي يتحقق فيه هدف الإنزال من القرآن هم أولوا الألباب: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وبعد وصف القرآن بأنه الكتاب وبأنه قرآن مبين حيث جمع بين المكتوب والمقروء الملفوظ المبين في وصفه في أول سورة الحجر جاء ختامها بتعظيمه والتعريف بقيمته، والتحذير ممن يتخذونه عضين فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]، قال: "الذين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض" (تفسير الطبري: ١٣/ ١٤٣).

فانظروا لهذا الجمال والإعجاز والجلال في القرآن الكريم.

وهناك حكم أخرى رائعة في زيادة (الميم) في سورة الرعد، وإضافة الوصف بـ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في بعض السُّوَر: في سورة يوسف والحِجر، وترتيب أسماء هذه السُّوَر الست حتى جاءت التسمية بيونس وهود عليهما السلام دون غيرهما مثلًا في سورتيهما مع قصر الإشارة إليهما في هاتين السورتين وتضخم الحكاية عن غيرهما...سنجد في كلِّ ذلك معاني أخر تتناثر من ثناياها الدرر، وتتضاءل بجوارها الشمس ويصغر القمر...ولعل الله عز وجل أن يبارك في الوقت فأكمل الكتابة عنها إن شاء الله.

ولعل هذا الترتيب العجيب يجعل الإنسان يميل بشدة إلى مخالفة القائلين باجتهادية الترتيب للسُّوَر وإن كان منهم أعجوبة العصور علمًا وعملًا وجهادًا شيخ الإسلام ابن تيمية رفع الله درجته في عليين.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل عرفنا في مجتمعاتنا ودولنا وحكوماتنا قيمة القرآن وقواعده السياسية والتربوية والعلمية والتزكوية؟ بل هل وجد المسلمون والجماعات الإسلامية منائره واضحة في حياتهم أم هو فقط للبركة..

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا يا أرحم الراحمين.